د. سمر حبيب

المثليّة الجنسية عند النساء
في الشرق الأوسط، تاريخها وتصويرها

وقائع محاضرة د. سمر حبيب في بيت أصوات – حيفا، في 3.2.2008

أصوات
نساء فلسطينيات مثليات
ASWAT - Palestinian Gay Women

أصوات – نساء فلسطينيّات مثليّات
المثليّة الجنسيّة عند النساء في الشرق الأوسط (٢٠٠٨)
محاضرة د. سمر حبيب في مقر أصوات

Female Homosexuality in the Middle East (2008)
A Public Lecture delivered in Arabic to Aswat by Dr. Samar Habib

إصدار: أصوات – نساء فلسطينيّات مثليّات
مجموعة "أصوات" تعمل كمشروع مستقل داخل "كيان – تنظيم نسوي"
إعداد وتحرير: ريما - مركزة مشروع المعلومات والمنشورات
مراجعة لغويّة: رؤى ترجمة ونشر
تصميمي غرافي: Deek&Sleem

© جميع الحقوق محفوظة ل: أصوات-نساء فلسطينيّات مثليّات
ود. ســمر حبيــب
الطبعة الأولى 2008

أصوات - نساء فلسطينيّات مثليّات
تلفون: 972+ 4 8662357
فاكس: 972+ 4 8641072
e-mail: aswat@aswatgroup.org
website: www.aswatgroup.org
تم إصدار هذا الكتاب بدعم سخيّ من:
OPEN SOCIETY INSTITUTE
& Soros Founditions Network
مؤسّسة المجتمع المفتوح وشبكة مؤسّسات وصندوق سوروس

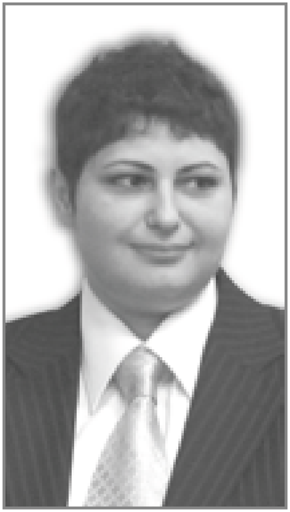

د. ســـمر حبيـــب

حصلت د. سمر حبيب على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدني، أستراليا، في موضوع الدراسات الاجتماعيّة والجنسانيّة والأدبيّة.

في عام 2007 نشرت كتابها "المثليّة الجنسيّة عند النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها". إلى جانب المواد الأكاديمية والترجمات التي نشرت سابقا في "انتر تكست"، نشرت حبيب عددًا من الأعمال الإبداعية بما فيها رواية "شجرة كالمطر" (سيدني: نيبيولا للنشر، 2005)، وكتيّب "جزر في الفضاء" (سيدني: نيبيولا للنشر، 2008).

تحاضر د. حبيب في كلية العلوم الإنسانية واللغات في مجالات الدراسات الإسلامية والنصوص الانكليزية والكتابة. تشمل مجالات تخصصها الثقافة الشعبيّة في الدول العربية والإسلامية، وأدب الشرق الأوسط، والتـــاريخ والسـياسة، ودراسات المثليّة الجنسيّة. وترأس د. حبيـــب اليوم تحرير المجلة الأكاديمية الدولية "نيبيـــولا".

قامت بترجمة ونشر الرواية اللبنانية "أنا هي أنتِ" بقلم إلهام منصور، للانكليزيّة في عام 2008. وتحضّر حاليا لنشر مجلدين يجمعان مقالات تعرض نصوصًا إسلامية عن المثليّات بين السنوات 1700-850.

هذه كلمة أصوات الثالثة عشر، والتي تنشر من ضمن مشروع المعلومات والمنشورات الذي يهدف إلى جمع معلومات تخــصّ مثليّات الجنس في مواضيع تاريخيّة، اجتماعيّة ثقافية، سياسيّة وصحيّة.

في هذه النشــرة نودّ أن نشــارككنّ بمحاضرة د. ســمر حبيب المرتكزة على كتابها.
د. ســمر حبيب هي مؤلّفة كتــاب بعنوان "المثليّة الجنســيّة عند النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها." د. حبيب تحمل شــهادة الدكتوراة من جامعة ســيدني، أســتراليا، في موضوع الدراسات الاجتماعيّة، الجنسانيّة والأدبيّة. حلّت ضيفة على أصوات في آذار 2008، وفي هذا اليوم ألقت د. حبيب محاضرتها بحضور ما يقارب أربعين مشاركًا ومشاركة مثليّات / ين وغير مثليين عرب.
في مــا يلي محاضــرة د. حبيب حــول المثليّة الجنســيّة في الشرق الوسط والمرتكزة بشكل أساسيّ على كتابها وبحثها وجهدها الخاصّ في هذه القضيّة.

لا أخفيكم سرًّا أنني أجد نفسي مرحّبًا بي في مكان في العالم يثير لديّ أحاسيس مضطربة ومتوتّرة. أشعر أنّ فلسطين هي جزء من حياتي وخيالي وسياستي، وأعرف، أيضًا، أنّ وجودي في العالم حصل بسببها. لقد وُلدتُ لأمّ وأبٍ من المهجّرين الفلسطينيين في لبنان. ولا أعتقد أنّهما كانا سيلتقيان من دون حدوث نكبة 1948 ولا كنتُ سأولد لولا ذلك.

وأضيــف أنّني عائدة إلى فلســطين، وأنني عائدة إلى مكان لــم أزره، وهذه تجربة روحانيّة، وليس صدفة أن يكون ســبب عودتي الروحانية هذه أمرًا آخر غير كنيســة القيامة (التي تعنينــي كمســيحيّة)، وغير جبل الهيكل (الذي يثير فضولي العلميّ)، أو المســجد الأقصى الذي يجذبني إليه من خلال محبّتي وإخلاصي للثقافة العربية الإســلامية. أما سبب عودتي إلى فلســطين فهو وجود مجموعة مثليّات فلسطينيات. فلســطينيّات ومثليات في وسعهنّ، لأوّل مرة في التاريخ، إنشاء مجموعة.

إنّ وجود مجموعة فلســطينيّات مثليّات هو إنجاز عظيم، لأنّ في وســعها أن تجمع المفكّرات والسياســيّات من كلّ أنحاء العالم، ولأنّ في وسعها أن تخلق المحاورة وتفرض على مجتمعها تناول أفكار معاكسة للنمط الاجتماعي السائد، لأنها تنظّم نشاطات تثقيفيّة، وتخلق ترابطًا بين أفراد مجتمعها. لكن، من أهمّ ما تقوم به أصوات بالنسبة إليّ هو إعداد وجمع أدب وثقافة عربيّين، أو على الأقلّ باللغة العربية، وإنشــاء أرشــيف يخصّ العربيات المثليات. إنّ هذا النوع مــن التنظيم هو، في اعتقادي، الأمر الأكثر أهميةً لأنّه يســاعدنا على تثقيف أنفســنا. إنّ وجود مجموعة مثليّات فلسطينيات مثل "أصوات" يؤدّي إلى خلق ترابط تاريخيّ بين الأدب العربيّ القديم وهذا الأدب المعاصر، وهما يتيحان الفرصة لبعض المثليّات للتكلّم عن أنفسهنّ. إنّ ما يثير ســروري كثيرًا في مشــروع النشــر هو أن هذه الكتابات تضع بين أيدي المثليين والمثليّات نظريات وأفكارًا تكون سلاحاً يحرّرنا من مفاهيم المجتمع البطريركي القامع لمعظم ما يتعلّق بالجنس.

من خلال هذه المنشـورات نسـتطيع أن نحرّر أنفسنا من رهاب المثليّة الذي ينعكس علينا في اللاوعـي، من خلال مجتمعات ترفضنا على الإطـلاق. إنّ تثقيف النفس يزيد الوعي. وأرى أن علينـا، إذا كنّا نرغب في تغيير المجتمع الذي يرفضنا، أن نبدأ بتغيير أفكارِنا السـلبيّة. كمثليّـات عربيـات نحن نعاني، في معظمنـا، من فترة اضطهاد طويلة وقاسـية أدّت إلى اختباء وتزوير هويّتنا النفسيّة ما دمنا في وسط أهلنا والأقرباء.

إنّ معظـم المثليّات العربيّـات اللواتي تعرّفت عليهنّ يتقبّلن الحيـاة المزدوجة: حياة الخزانة، حسـب المصطلح الغربيّ، حول الأهـل والأقرباء، وحياة الحرية الجنسـيّة، بعيدًا عنهم. وأنا أعلـم أنّ هنـاك الكثير من المواقف والحالات التي تجري في العالـم والتي يؤدّي فيها تعريف الإنسـان بجنسـيّته المثليّة إلى خطر على حياته/ها، وفي معظم الحالات يتمّ الاستغناء عن هذا الخطر.

ومـع هذا، فإنني لا أنكر إعجابي بالمقاومة التي تقف حتى بوجه هذا النوع من الخطر، كما حصل بمدينة نيويورك في عام 1969، بعد اقتحام الشرطة موقع ستون وول[1].

حدّثني رجلٌ في هذا المكان في عام 2004 عن الأحداث الذي شـاهدها بنفسـه وقال لي إنّ من بدأت المعركة مع الشرطة كانت مثليّة جدعة [2] (Butch)، ومن جاء لنجدتها بعد ذلك كنّ ملكات العروض (Dragqueens).

---

1 في مساء 27.7.1969 ، في مدينة نيويورك داهمت قوّة الشرطة بارًا لمثليي الجنس يدعى بار ستون وول في قرية غرينتش في الولايات المتحدة. عام 1969 لم تكن هذه الغارات غريبة؛ في الواقع كانت هذه الغارات تجري بشـكل دائم ولكن دون أيّ مقاومة تذكر. في تلك الليلة اندلعت في الشـارع احتجاجات عنيفة حيث قاومت الحشود بجرأة غارة الشرطة. وأطلق على ردود الفعل وعلى عدّة ليالٍ من الاحتجاجات أعقبت ذلك الحدث، مظاهرات ستون وول (The Stonewall Riot).

2 المصطلحات بالعربيّة مأخوذة عن قاموس مصطلحات أصوات الثاني ٢٠٠٨.

إنّ الخــروج مــن الخزانــة الذي أتكلّم عنه يأتي بعد فترة قاســية من تثقيــف النفس. هذا النــوع من الخروج يصبح حركة سياســية فعّالة، ويكون خروجًا عن قصد وبكامل الوعي. ونقــوم بهــذا النوع من الخــروج لكي نكون الإثبات الحيّ على كون المثليّة الجنســيّة شــيئًا طبيعيًّا، وليست مرضًا أو حالة بحاجة إلى تصليح أو إبادة. وأننا نملك القدرة المتواضعة التي تفرض على الآخرين كيفية التعامل معنا. فإذا تصرّفتِ كفريســة فســوف يفترســونك، وإذا تصرّفتِ مع شــــعور بالذنب أو بالعار فســتعزّزين الفكرة القائلة بأنّ هناك شيئًا يدعو للذنب والعـــار.

قــد أكون محظوظةً جــدًّا لأنّ مثليّتي كانت ملحوظة عندي منــذ أيّام طفولتي، ولم يكن باســتطاعتي أن أتجاهلها، ولهذا الســبب أصبح خروجي، وبعد ذلك ظهوري، شــيئًا لا يستغنى عنه. أخبرت إخوتي وأخواتي أوّلاً، وكنتُ في السادســة عشــرة مــن عمري. في تلك الفترة نفسها التقيتُ بحبيبتي الأولى. نصحتني أختي بأن لا أخبر أهلي، لكنني لم أصغِ لهذه النصيحة، وأخبرتُ أمّي في السنة ذاتها. كذلك أمّي نصحتني هي، أيضًا، بإصرارٍ أشدّ، بأنِ لا أخبر أبي لأنّ مثل هذا الخبر قد يؤدّي إلى سكتة قلبيّة لديه. وكان خوفي على أبي يشبه خوف أمّي عليه. ولم أعلم والدي بالأمر إلا بعد مرور ثلاث سنوات. حينها كنتُ في التاسعة عشرة من عمري. في ذلك الوقت كنت في علاقة طويلة الزمن مع شابة أسترالية. لا أزال أتذكّر كيف قرّرت، بعد سنة ونصف السنة من العيش مع صاحبتي، أن أخبر أبي. كان جالسًا أمام التلفزيون في صالوننا في البيت وأنا، بألم شــديد وبارتباكٍ هائل، ســمعت نفســي تقول: "أنت تعرف أنّ لي صاحبة، نعم؟". التفتَ إليّ أبي حينها رافعًا حاجبيه ولم ينطق بشيء إلا "كما تريدين"، وتابع مشــاهدة الأخبار على التلفزيون، ولم تحدث لأبي سكتة قلبية كما توقّعنا بسبب صراحتي معه. أعتقد أنّه تقبّل الموضوع بشــكل شــبه إيجابي حتى أكثر من أمّي، لأنّه، بخلاف أمّي، لم يطلــب منّي أن أحاول "تصحيح" تصرّفاتي. أعتقد أنّ هنــاك اتفاقًا بيني وبين أبي بخصوص جاذبيّة المرأة للإنسان، سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أو امرأة أو غيرهما.

خلال السنوات التي أعقبت خروجي أمامهما تعزّزت بينهما وبين صديقاتي علاقات حميمة ومخلصة. أذكر، أيضًا، أن أمّي وأبي كانا يشعران، مع هذا كلّه، بالإحراج أمام خالاتي وبعض الأقرباء المسيحيين في أستراليا. وذات مرة طلبا منّي أن لا أكشف الأمر لخالاتي، لكن في يوم من الأيام، وكنت في الخامسة والعشرين من العمر، أتت إحدى خالاتي لتزورنا في أستراليا، وفي ذلك الوقت كنت في علاقة شبه زوجيّة ولم أرضَ أن أنكر زوجتي ومكانتها عندي، وبهذه الطريقة (التصرّف الطبيعي) اكتشفت خالتي أنّ سمر مثلية وأنّ زوجتها صبية طيّبة ومحبوبة من قبل الجميع. عادت خالتي إلى لبنان، ولكنها لم تخبر أحدًا عن التطوّر في حياتي. بعد فترة من الزمن عادت هذه الخالة لتزورنا في أستراليا ومعها خالتي الأخرى.
أخذتني الخالة التي تعلم عن مثليّتي جانبًا وقالت لي: "سمر أنا أحبّك كيف ما تكوني بس ما لازم تخبري خالتك التاني، هي بترفض الموضوع على الإطلاق وهم تقليديين كتير".

شاهدتُ الرعب في عينيها وكان هذا نفس الرعب الذي مكث عندي منذ عشر سنوات، وكان، أيضًا، الرعب نفسه في عيني أمّي وأختي، وحتى أبي، أحيانًا. لكن عندما أتت هذه الخالة بإشعارها الخاص، كنت قد أصبحت خبيرةً في هذا المجال، ولم أعد أقبل بهذا النوع من الإذلال والاختباء، ولم أصدّق للحظة أنّ خالتي الأخرى سوف تتبرأ منّي. ولهذا السبب عندما التقت خالتي لأوّل مرة بزوجتي قدّمتها لها بكونها "زوجي"، وضحكت خالتي ولم تعترض على الإطلاق.

أشعرُ أنّ ظهوري كمثليّة وخروجي الشفهيّ واليوميّ هو عمل سياسيّ وهو فرض واجب على امرأة مثلي: امرأة لا تخاف ممّا يمكن أن تخسره من خلال الخروج والظهور، وامرأة لا تخاف من مواجهة الرافضين والعنيفين والمتدينين وأفكارهم المُضحكة. ولكلّ هذه الأسباب يتوجّب عليّ الخروج والظهور. هنا أعلم أنه سوف يأتي وقت تقوم فيه خالتي هذه بترديد

الأسطوانة التي نعرفها جيدًا. سوف تقول لي: "سمر أنا أحبك كيف ما كنتِ بس ما تقولي لزوجي، سوف يحتقرك حينها." ولكنّني أعرف زوجها وأعرف أنّنا سنكون دائمًا صديقين، وأعتقد أنه على الأقلّ سيشكّ بشأن هويتي الجنسية المثلية بعد حوار كان بيني وبينه، أعلنتُ له خلاله أنه ليس من الممكن لي أن أتزوّج رجلاً أو أن أنجب أطفالاً.

لا أريدكنّ أن تعتقدن أن إخباركنّ بهذه التجارب الايجابية يعني أنّني أنكر وجود رهاب مثليّة قاتل أو وجود نوع من رهاب المثليّة الذي لا نستطيع أن نتفاهم معه بأيّ وسيلة كانت. لكنني أريدكنّ أن تعلمنَ أن هذه التجارب الإيجابية، وهذه الأنواع من الحركات السياسية والشخصية البسيطة تحصل، أيضًا، في العالم. إنني لست فريدة كمثلية عربية في هذه التجربة. أعتقد أن هناك العديد منّا اللواتي يستطعن أن يخرجن من خزانة المنزل، ولكنهن لا يعالجن رهاب المثليّة (الهوموفوبيا) التي تمكث عندهنّ، مثل أمّي وأختي وأبي وخالتي. كلهم كانوا يعتقدون أنّ الاختباء الفرعيّ هو نوع فعّال، ولم يلاحظوا لبرهة واحدة أنّ هذا الحلّ يمسّ الكيان، أو أنّ هذه الإهانة هي ثمن غير معقول لما نحصل عليه من السترة الكاذبة، في المقابل.

كنت على استعداد لأن أخسر أصحابًا وأفرادًا من عائلتي، لكن لحسن الحظّ لم يحصل هذا الشيء معي. حتى أقربائي المسيحيون المتحفظون، الذين قيل لهم منذ تفتّح وعيهم على الحياة إنّ التناسل هو شيء مقدّس وإنّ العائلة هي الذرية التي ربّها ورأسها هو الأب، والتي تأتي وحدها مع دعم من الله تعالى (ربنا وأبونا الكبير).. حتى هؤلاء يجدون أنفسهم مجبورين على تقبّل جنسيّتي وصديقاتي وتصرّفاتي "الذكورية".
أعتقد أنّ هناك علاقة بين تقبّل إزدواجية الحياة وبين ما تحسّ به الإنسانة من توتّر تجاه مثليّتها الجنسية. لربّما أن الخطوة الطبيعية القادمة لنا أن تكون من "أصوات" إلى "أصوات ووجوه". هناك قوّة هائلة بقولنا، وبكلّ بساطة، "نعم أنا مثلية، وما المشكلة؟ هل

أنت أحمق؟". هذا النوع من فرض الذات يخلّ بموقف المجتمعات العربية التي لا تشكّ للحظة واحدة في أنّ المثلية الجنسية هي شي طبيعيّ. ولكنّ المشكلة هي تخلف ثقافتنا الجنسية في الوقت الحاضر.

أعرف أنّ هناك فائدة لنا في الاختباء. الاختباء يفيد إنسانة لا تريد أن تخسر حرية التصرّف والحركة غير المكشوفة، كما تريد أن تتجنّب مواجهة أهلها وأصحابها لأنها لا تريد أن تستغني عنهم، ولا تريد خسارتهم. وأعرف، أيضًا، أن بعض المثليّات يعتقدن أن الخروج هو إستراتيجية غربيّة وليس علينا أن نتبعها لنكون أحرارًا لأن مجتمعاتنا تختلف عن الغرب. هذه الفكرة شائعة عند المثليّات العربيات ولكنني لا أتفق مع سياسة الازدواج هذه، خصوصًا لأن الأفكار التي تداولها الغرب بالنسبة للمثلية منذ عشرين أو أربعين سنة ما كانت تختلف عن أفكار العرب الحالية. والطريقة التي أدّت لتحرير مثليي ومثليات الغرب كانت وحدها طريقة الإعلان عن النفس، وطريقة الخروج الإيجابي الذي رفض الوسم بالعار والإحساس بالذنب وضمّ له بكل محبّة وفخر الجنسية المثلية وغيرها من الاختلافات. وهذا الخروج الإيجابيّ عزّز أهميّة الحبّ والاكتفاء الجنسيّ عند الإنسان.

إنّ المشروع السياسي عند مثليي ومثليات الغرب تلقى كثيرًا من الكراهية من جهات دينية ومن الشرطة ومن وكالات القضاء والحكّام. وبدأ مشروعهم الكفاحي هذا قبل إزالة قوانين تلك البلاد التي كانت تعاقب العمل المثليّ الجنسي كما لو أنّه جريمة. لا بل تغيّرت هذه القوانين القامعة بسبب جرأة البعض وظهورهم وكفاحهم. إنّ مثليي ومثليّات القرن الماضي تظاهروا وحاربوا الشرطة وقضوا وقتًا في السجون واضطُهدوا، لكنهم أسقطوا عن أنفسهم الرعب من المعاملة السيئة ومن السجن، مثلهم في ذلك مثل انتفاضة الفلسطينيين في الثمانينات، حيث سيأتي وقت نرفض فيه الاستعمار الجسديّ والروحاني.

مطالبتنا بحريتنا وحقوقنا لن تكون دائمًا مسالمة ونظيفة، فقد تكون هناك نقطة في الزمن سنضطرّ فيها أن نحارب، وأن نقف صامدين دفاعًا عن حقوقنا، وأن نكون مشاغبين ونتكلّم بأصواتٍ مرتفعة عن أشـياء سـاخنة، وأن نكون مسـتعدّين لخسـارة أجزاء من حياتنا التي تنمو بخزانتنا. ولا أريد أن أصعب الأمر على أحد، لأنني لا أقصد كل فلسطينية أو عربية مثلية بهذا الكلام، وإنما أقصد تلك التي تفكّر بهذا الأسـلوب والتي تسـتطيع وتريد أن تؤثر وتغيّر فـي المجتمعـات العربيـة، لتحقق من خلال طريقـة تصرّفاتها المكشـوفة كل التغيير المرغوب.

وبالنسبة إلينا نحن العربيات المثليات اللواتي نعيش في الغرب، أعتقد أنّنا نضيف إلى مشكلة رهـاب المثليّة، فنحن نعيش في بلاد تحمينا وتحمي حقوقنـا ولكن معظمنا لا نزال نعيش حياة الخزانة المنزلية. اسـألي نفسـك إذا كنت تسـتطيعين الخروج الكامل، وإذا كان في وسـعك أن تتحمّلي الخسـارات التي ستصاحب هذا القرار. اسألي نفسك إذا كنت قادرة على خسارة رسن الاختباء، وإذا كنت تستطيعين فعل ذلك فافعلي. لا تقبلي أن تكون مشاعرك رهينة للآخرين. لا تقبلي "لو عرفت أمّك هذا فسوف يقتلها". إذا كنت تعتقدين أنها سوف تموت من هذا الشـيء فدعيها تموت. ابتعدي عن أيّ شـيء يمسّ كيانك وابتعدي عن أيّ شـيء يجعلك تشـكّين في حقك في أن تكوني هكذا، وفي حقك في أن تعاملي كإنسـانة. ابتعدي عن كلّ شـيء يجعلك تشـكّين بجمالـك كما أنتِ وجمـال خروجك عن النمط الاجتماعي السائد، واشكري ربّك لهذا الاختلاف. ابحثي عن الأخريات. ثقّفي نفسك. حقّقي لنفسـك الاسـتقلال المادي. ضمّي إليك شهواتك الجنسـيّة وحرّري نفسك من المفهوم الدينيّ الذي يعلمنا أنّ الجنس هو شيء إثم وأنّ هدفه الأعلى هو التناسل المقدّس.

هنا ينتهي تعليقي البسـيط على حالة المثليّات العربيات بشـكل عـام، وتعليقي على أهمية الخـروج لقبولنا لذاتنا أوّلاً. وقبل أن نطلب من المجتمـع، لا بل نفرض وجودنا على المجتمع

من خلال الحركة السياســية الأخرى وهي الظهور، لا بدّ لكلّ مثليّة أن تكون ظاهرةً، ولكن عــادةً ما يظهر مــن المثليين والمثليات من هــم المتذكّرات والمتأنّثــون، لأن المجتمع ينصفهم باختلاف عن قالب الحياة "الطبيعيّ" المجسّــد بذكــر رجوليّ فاعل، وامرأة مقوقعة أنثويّة، مفعول بها.

لكن، لننتقل الآن إلى معاملة الديانات الإبراهيميّة للمثليّة. ولنبدأ بآخر هذه الديانات:
العديد من المســلمين يؤمنون بأنّ الإسلام والمثلية لا يصالحان معًا، أو أن اصطلحا فيكون هذا مبنيًّا على خطأ كبير وتجنٍّ على الدين. ومن الممكن أن نرى أن أي محاولة لإنتاج إسلاميات قابلة للمثلية هي محاولة يائسة وحتى مستحيلة.

ولكن هذا الاعتقاد يســبّبه عدم المحاولة الجدية، ويبقى هذا الموضوع مطروحًا للتداول لدى العديد من المســلمين والمســلمات المثليين والمثليات المؤمنين الذين يهتمّون بهذا الموضوع بشكل خاصّ ولأسباب شخصيّة.

أودّ أن أشارككنّ أفكاري حول إسلاميّة قابلة للعلاقة المثليّة.

أولاً، يلزمني أن احدّد الكتابات الإسلامية المقدّسة – أي الأحاديث الصحيحة والقرآن الكريم - وهما لا يتعاملان بشكل واضح مع المثليّة، كما يتبيّن لنا من قبل بلاد كالسعودية أو إيران أو نيجيريا التي تتبع قوانين الشريعة الإسلامية، حيث المثلية تتلقّى عقوبة الإعدام.

هذه الشريعة التي تحكم على المثلية كما لو أنها جريمة تعود إلى حديث عن علي بن أبي طالب. بعد موت رســول الله (صلى الله عليه وســلم) أصبح علي بن أبي طالب في مكانة الحاكم لفترة قصيرة. وفي يومٍ من الأيام ألقي القبض على شــابين يمارســان الجنس المثلي، وتبين

للجميع حينها أن لا أحد من صحابة الرسـول (صلى الله عليه وسـلم) كان يسـتطيع أن يذكـر حديثـًا له عن كيفية معاقبة المثلية، أو ما إذا يجب أن تُعاقب أصلاً. حينها أمر ابن أبي طالب بإعدام الشابين من خلال إلقائهما من فوق سطح ورميهما بالحجارة. من هنا نصل إلى معاقبة المثليّة في الشريعة الإسلامية المعاصرة.

بعد هذا الحدث، أي العقاب الرسـمي الأول في الإسلام، لاحظ الفقهاء الأوائل أن القرآن الكريم لا يتكلّم بسلبية واضحة أو صارمة عن المثليّة، وبدأ مشروع رفض ومعاقبة المثليّة عند بعض الفقهاء كالزهري، أبي هريرة، السيوطي، المشتولي، المتقي الهندي والذهبي وغيرهم.

عشـر هـؤلاء الفقهاء، بعد بحث مسـتفيض، على بعض الأحاديث المقطوعـة التي ادّعت بأن رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) كان قد قال إنّ السحاق هو زنا النساء بينهنّ، وإنه قال أن يقتل الفاعل والمفعول به بالعمل اللواطيّ بين الرجال.

في القرون الإسـلامية الأولى لم يكن هناك اتفاق عالميّ بـين الفقهاء، وتقبّل بعضهم المثليّة. ومنهـم حسن البصري، مثـلاً، أو ابن الحزم، اللذان كانا يتعاملان مع رجال مثليين بشـكل صريح وإيجابي، وكتبا عن المثلية بشـكل طبيعيّ ومسـالم. كذلك فعل قاضي المسلمين يحيى بن أكثم في بغداد في عهد الخليفة المأمون، وبن أكثم كان مشـهورًا بحبّه للواط، وهو لم يكن يعاقب العلاقات والأفعال المثلية بل عاقب الزنا بشكل صارم.

وهناك أيضًا ما شاهده ابن حزم في القرن الحادي عشر الميلادي، وهناك ما كتب عن بعض القبائل الإسـلامية التي كانت تسـمح بالمثلية، وبعض القبائل الأخرى التي كانت تحدّها وتعاقبها كالزنا. وابن حزم نفسه هو الذي يثير انطباعاً لقصة قوم لوط في القرآن الكريم، وكان يصرّ على أنّ القصد من هذه القصة ليس عقاب المثلية بل عقاب الكفّار.

فـــي الواقـــع، كان لوط يعاتب قومه لأنهم قد هجروا نســاءهم لحــبّ الرجال وليس لحبّهم للرجال فقط.

وقد لاحظتُ أنا، أيضًا، أنّ هناك ترابطًا بين أسلوب سرد قصّة قوم لوط وقصّة قوم ثمود في الكتاب الكريم، وأنّ قوم ثمود أبادهم الله لكفرهم وعدم قبولهم الرســول صالح، كما كان عدم قبول لوط كرسول من قبل قومه.

لكنّ فقهاء اليوم يصرّون على اســتنتاج عدوانية للمثلية من قصة قوم لوط القرآنية، وليس فقط عدوانية لأفراد القوم الذين يمارســون الجنس المثليّ، بل عدوانية شــاملة لكلّ المثليين في كل مكان وزمان، في الماضي والحاضر والمســتقبل، ولكــنّ القصّة وحدها لا تحتمل هذا الإجراء.

لكن، تبقى هناك أحاديث صحيحة موجودة في صحيح مسلم وصحيح البخاري، وهي تقول في فصل اللباس عند البخاري إنّ رســول الله (صلى الله عليه وســلم) لعن الرجال المتشبّهين بالنساء والنساء المتشبّهات بالرجال.

وهنــاك حديث آخــر يتكلّم عن مخنّث في منزل أم ســلمة (زوجة الرســول) وفي الحديث يمنعه الرسول من الدخول على الحرم، كما كان يُسمح له سابقًا، وكان هذا بسبب وصفه الجنســيّ لإحدى النساء أمام الرســول ولواحد من صحابته. ومنعه الرسول من الدخول على النســاء ليس بسبب مثليته بل بســبب غيرته. ونشاهد هنا أن النبيّ محمد (صلى الله عليه وســلم) لم يكــن يعاقب المخنّثين، وأعتقد أنّ كلمة المخنث تعنــي الرجل المثلي المؤنث. لكن، فـــي ذلك الوقت كانت كلمة "المخنث" تعني، أيضًا، الرجل المخصيّ أو حتى الشــخص الذي بــلا جنس محدّد أي Intersex. لكن بعض المترجمين في عصرنا الحالي يرون أنّ المقصود

بالمخنّــث في هذا الحديث هو الرجل المثلي المؤنّث، وأنا لا أعترض على إمكانية أن تكون هذه الكلمة واردة بهذا المعنى.

لم يعترض الرســول (صلى الله عليه وســلم) على وجود هذا المخنّث أمامه إلا بسبب وصفه الجنسي لامرأة، وليس بســبب خنثه أو جنســيته. ولهذا السبب، نســتطيع أن نتفهّم، بوعي أكثر، سبب عدم وجود عقاب رسميّ للمثليين إلا بعد موت الرسول. فحتى إن كان الرسول قد لعن النساء اللواتي يرتدين لباس الرجال والرجال الذين يفعلون ذلك بثياب نسوية، فهذا الكلام لا يعني أنه ضد المثلية الجنسية.

لكن، في حال ســتكون هناك إســلاميات قابلة للمثلية فسوف تواصل فرض الزواج والإعلان عن العلاقة من خلال هذا الزواج، لأنّ من الواضح أنّ الإســلام لا يســمح بأيّ علاقة جنســيّة خارج إطار الزواج، وسوف يبقى الزنا من أكبر الجرائم الدينية، حتى لو ترك المجتمع عقاب الفاحشــة لله ولم يفرض نفســه حاكمًا على كلّ ما يفعله الإنســان من تصرّفات فردية ومتحرّرة.
كما أن الإســلاميات القابلــة للمثلية لا بد أن تفرض على المؤمنــين المثليين أدوارًا ذكورية وأنثوية بالمعنى التقليدي، لأن المجتمعات الإســلامية لا تزال تتطلب هذه الأدوار – من ســت المنــزل إلــى رجل البيت - لتنظيم الحيــاة الزوجية والمنزلية. لكن، أعتقــد أنه حتى مع هذا التقنين، لا تزال هذه الإســلامية القابلة للمثليّة من خلال مؤسّســة الزواج أمرًا مرغوبًا فيه، ومحطّة جديدة لبداية الطريق الطويلة نحو تحرير المثليّة الجنسية الموجودة ضمن الديانات الإبراهيمية المحافظة.
أودّ أن أقــول هنــا إنني أتكلم مــن موقف غير متديّــن، ومن موقف يغــذّي فضولي العلمي والثقافي، ولهذا السبب فأنا لا أتكلّم كمسلمة.

أمّا الدين اليهودي الذي زوّد المسيحية والإسلام بقصّة قوم لوط التي تستعمل كسلاح يعين رهاب المثليّة، فيقول البعض فيه إنّ التشديد في هذه القصة في التوراة كان يقع على نقطة معاقبة قوم لوط بسبب محاولتهم الاغتصابية لأحد زوّار لوط، والذي كان أيضًا ملاكًا ينزل من الله تعالى. ويقول جون بوسويل (John Boswell[3]) إنّ القصد من هذه القصّة أصلاً هو تهذيب القبائل نحو معاملة إنسانية مع الأغراب وعابري الطريق. أمّا كتاب اللاويين (سفر اللاويين في التوراة)، الذي يخصّ حياة الرهبان اليهود من القوم بنفس الاسم، فقد حدّد كثيرًا من الممنوعات عليهم: منعهم من أكل المحار (نوع من الحيوانات الصدفيّة المائيّة)، مثلاً، كما منعهم من ارتداء ملابس فيها أكثر من نوع واحد من القماش. لكنّ أحدًا لا ينظر إلى تحريم أكل المحار أو ارتداء البذلة المخلوطة، ويتبع هذه التحريمات اليوم، لكنّ الجميع يصرّون على ذكر تحريم المثليّة بين الرجال، ويرون أنّ هذا التحريم يسري على جميع الرجال والنساء، وهو ليس تحريمًا يخصّ الكُهان فقط.

لكن حقيقة كلمة "سدومايت" أو عبارة قوم لوط لم يكن معناها يتعلّق بالمثليّة بأي تحديد أو تعريف طوال قرون عديدة، ولم يتم ذلك سوى بعد اجتهاد رجال الدين في مشروع تحريم العلاقات المثلية الجنسية.

إنّ مجتمعاتنا تفرض علينا الخيار بين المثلية والتديّن، لكنني لا أعتقد أنّ هناك اختلافًا أساسيًّا بين المثلية والدين، إلا إذا كانت هذه المثلية متحرّرة من قيود الدين لصالح الاستمتاع بالجنس.

---

3 أكبر مرجع غربي متخصّص في تاريخ المثليّة الجنسيّة في المسيحيّة. وهو بروفسور ومؤرّخ معروف بجامعة ييل الأمريكية العريقة وأستاذ قسم التاريخ سابقًا فيها.

وهنـــاك اعتقادات خاطئة أخــرى متداولة في مجتمعاتنا العربية، ومن ضمنها أنّ المثلية هي شــيء مستورد من الغرب. لكنّ الحقيقة هي أن المثلية الجنســية قائمة في كل أنحاء العالم وفــي معظم المجتمعات عبر التاريخ. وكان المفهوم الســائد عنــد الغربيين، في أواخر القرن التاســع عشــر، يرى أنّ بلاد العرب الصحراوية نابعة من هذه الممارســات والعلاقات. وكان الغربيون يعتقدون حينها أنّ المثلية أصلها عندنا وأنّهم استوردوها منّا.

وأحــبّ الآن أن أعرض عليكنّ بعــض الكتابات العربية القديمة التي استكشــفتها من خلال أبحاثي في هذا الموضوع الشيّق. أودّ أن أعرّفكن على سحاقيات الحضارة العربية كما قدّمها بعــض رجــال المجون والأدب القديم، ولكي نفعل ذلك علينــا أن نتوجّه أوّلاً إلى عهد الخليفة المأمــون، وتبدأ حكايتنا عند الحســن اليمني المتوفّى عام 850 ميلادية. وفي كتاب رشــد اللبيب إلى معاشرة الحبيب يقول اليمني ما يلي:

"السحاق قديم في النساء، ولهن به لذة يهون عندهن الافتضاح به والاشــتهار به. قال صلى الله عليه وســلم ((ســحاق النساء بينهن زنا)) وأول من سنّ السحق ابنة الحسن اليمني، وكانت وفدت على النعمان بن المنذر فأنزلها عند امرأته هند، فعشقتها وشغفت بها، وكانت هند أحسن أهل زمانها، وهي التي تسمى المتجردة لحسن متجردتها، فلم تزل ابنه الحسن تخدعها وتزين لها الســحق وتقول: في اجتماع المرأتين لــذة لم تكن بين المرأة والرجــل، وأمنا من الفضيحة، وإدراكا لتمام الشــهوة من غير اتهــام ولا محاذرة لعاقبة، حتى اجتمعنا، فوجدت من الالتذاذ بها فوق ما قالته، وبلغ من شــغف كل واحدة بالأخرى ما لم يكن بين امرأتين قط قبلهما، فلما ماتت ابنة الحســن اعتكفت هند على قبرهـــــا حتى ضرب المثل في ذلك. قال الفرزدق:

وفيت بعهد منك كان تكرما   كما لابنة الحسن اليماني

وفت هند (رشد اللبيب ص. 4-123)

يعتقد اليمني، كما نرى، أنّ هند شغفت ببنت الحسن، وإن كانت علاقتها قوية ومخلصة وملتزمة وعلاقة جنسيّة، جسدية بشكل واضح. زوجة المنذر الملك البيزنطي (المسيحي) عاشت في القرن الخامس الميلادي، ويعني ذلك أنّ هذه القصّة حصلت قبل ولادة الإسلام عند العرب. ويضيف اليمني إلى ذلك أن:

> "ثمّ من بعدهما رغوه ونجدة، تعاشقتا واشتهر أمرهما بالسحاق حتى عيّر أخو رغوم بذلك من أخته، فرصد لهما حتى وافاهما يوما وهما مضطجعتان، فقتل نجدة وارتحل بأخته، فجعلت رغوم تحرض قوم نجدة على قتل أخيها، وشبّت الحرب بينهما. وفي هذا دليل على عظم ما يجدنه من اللذة في السحق وترجيحه عندهنّ على اللذّة من الرجال (رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، ص. 124)

وتبيّن هذه القصّة أنّ العلاقة المثليّة هذه كانت مرفوضة عند قوم رغوم وأخيها، لكنّ هذه العلاقة لم تكن مرفوضة من قبل قوم نجدة لأنّ عشيقتها استنجدت بهم حيث شبّت حرب بين القومين.

ويضيف اليمني إلى ذلك أنّ السحاقات على ضربين: أحلاهما من تحبّ السحق ولا تكره الأير ومن الممكن استخراج هذه من السحق على طريق الرجل "الماهر الموسر من الباه..." ولكن

يضيف اليمني أن الضرب الثاني من السحاقات هي: "المتذكّرة الخلق ويظهر ذلك فيها من صغرها." (رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، ص. 125) وتلك السحاقات، كما يعتقد اليمني، لا يمكن إعادتهنّ، إلى الصراط المستقيم.

كما تعرفنَ فإنّ تحليل اليمني هذا لا يُرينا حقيقة المثليّات العربيات، بل أنه يُرينا جهله في الموضوع، وهذا النوع من الجهل يشاركه فيه العديد من الباحثين الغربيين في أواسط القرن العشرين، حيث كان الباحثون في هذا المجال، باستثناء ألفريد كنسي، يعتقدون أنّ كلّ المثليّات هنّ شبه رجال أو رجال من دون الأعضاء الجنسيّة الأساسيّة، وأنّ الرجال المثليين هم كالنساء ولا تزال المجتمعات العربية على هذا الاعتقاد حتى اليوم. إضافةً إلى ذلك فأنّ المثليّات الفائقات بالأنثوية لا يُعتبرن مثليّات حقيقيّات وإن كان يمكن تحويلهنّ لغيريّات من خلال ممارسة جنسية مع الرجل الماهر بالباه!

يجب علينا أن نقرأ هذه الكتابات القديمة بحرص، وأن لا ننسى أنّها كتابات تحاول أن تضعنا في قوالب الجنسيّة الغيرية السائدة التي تفرض علينا أنّ الرجل يحصل على رجولته من خلال تذكّره، وأنّ المرأة لا تستطيع أن تكون امرأة من غير الأنوثة، وإن كان هناك شاب مخنّث متكسّرًا في مشيته يفرض مجتمعنا علينا أن نراه كامرأة، لكن لحسن الحظّ، فإنّ مفاهيم نظريّة تحرّر الجنس (Queer theory) التي بدأت في أواخر القرن الماضي علّمتنا أنه ما من سبب لربط جنسية الجسد بالعقل والعكس.

لقد أصبح في وسعي أن أكون امرأة فائقة الأنوثة، وأن أكون مثليّة وحصريةً، أيضًا، ومن الممكن أن أكون مثلية بتصرّفاتي وردائي، ولا يعني هذا أنّني مُسترجلة، أو أنّ بيني وبين الرجولة أيّ علاقة، خصوصًا علاقة الصورة بالشيء الأصل. ومن الممكن، أيضًا، أن أكون رجلاً بلا قضيب، أو أن أكون امرأة متجسّدة بجسد رجل. وحتى لو كان تكويني الجسدي

بأيّ تكوين كان فإنني أستطيع أن أرفض أن أكون امرأة أو رجلاً، وأن أشعر حقًّا بأنّ هويتي الجنسيّة هي شيء غير مُحدّد، أو على الأقل مختلف عن مفهوم المجتمع للرجل والمرأة.

إنّ نظرية تحرّر الجنس تُساعدنا على تحليل هذه النصوص البطريرقية التي ترى أنّ كل ما يتعلّق بالجنس يبدأ وينتهي عند الرجل. لكن يعترف اليمني، وبمضض شديد، بأنّ هناك لذّة جنسـية لدى تلك السـحاقيّات، ولا يمكن لهنّ أن يجدن اللذة نفسـهًا مع الرجال، وهذا اعتراف مهمّ، وهو اعتراف بوجود المثليّة عند النساء منذ ذلك الوقت وحتى من قبل ذلك.

كمـا يدلّ هذا الاعتراف على وجود مثليّات عربيـات عبر التاريخ، وفي ثقافات وحضارات مختلفة – وإنّ من أطرف ما نقله اليمني من كتابات سحاقية هو أبيات الشعر التالية:

"وصـورت مُتَقية صورة غلام قد رفع رجلي امرأة وهو ينيكها:
وأرسلت به إلى سحاقة، وكتبت عند الصورة تقول:

هـذا وحقـك حالـي ما
للسحاق وما لي
يرمي القلوب بلحظ
كإصابات النبالِ
ذو طـرة كظـلام
وغرة كهلالي
وقامة كقضيب
تزهو بحسن
اعتدال
فذاك أنسى رسـولي يفديه

روحي ومالي
عســى يشـقيك هــذا فــلا
يغنيني فعالي

فصورت السحاقة صورة جارية تســاحقها وأرسلتها الى متقية وكتبت عندها:

لكن كســي يجود
يزهو بخد وخال
كمثل نقطة مسك
تلوح فوق هلال
تريــك ثغــرًا نقيًّــا
ومبسمًا ملالي
فيه رضاب شهي عذب
المذاق حالي
وحســن جيد بهي
كمثل جيد الغزال
أقول لما بدا لي من حسنها يا
ما بدا لي
سبحتن من صاغ الجمال من
صلصال
فصــار خلقا ســوياً
مكوناً من جمال
أتيــت أرشــف فيها

وصادها عند دال
إن كان هــذا حرام
فذاك غير حلال
(رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، ص. 2-131)

إنّ هــذه القصيــدة الأخيرة تمثّل لي حقًّــا أهم وأجمل الكتابات القديمــة في هذا الموضوع، لأنّنا نســمع صوت ســحاقية عربية من خلال القرون ولا نزال نستطيع أن نفهم أحاسيسها ومعاناتهــا معًا: من وصف عملية جنســية شــفهية ووصف الظمأ للاكتفاء الجســدي عند إنسانة من خلال إنسانة أخرى، إلى ما تقوله الشاعرة بالنسبة لتحريم روي العطش الجنسي، وقولها السياسي والواضح إنّ هذا التحريم هو نفسه حرام. وألاحظ أن الشاعرة تستعمل رموزًا دينية كنقطة المسك التي تلوح فوق الهلال، وأعرف حينها أنني أقرأ لشاعرة عربية مثقفة وقوية الشخصية ومثلية واستثنائية، ربما تكون مسلمة التربية والثقافة. هذه المرأة المجهولة التي خاطبت المتقية الغيرية ترينا أن المثلية ليست على اختلاف مع العروبة، لا بل إن هناك تضامنًا أدبيًّا وتاريخيًّا بين هاتين الهويتين، ومع أنّ اليمني كان يرى أن المثلية هي شيء إثم ومحرّم بالحديث المقطوع: "الســحاق زنا النســاء بينهنّ"، كان لا يزال يتقبّل وجودهنّ ولا نرى في كلامه تحريضًا على إبادة المثليات أو معاقبتهنّ.
أمّا أحمد بن يوســف التيفاشي (عالم عربي مسلم تونسي) المتوفّى عام 1253 ميلادية، فقد كان ينظر إلى الموضوع بشــكل إيجابي ومدهش، وهــو الوحيد الذي قال إنّ بعض الحكماء كانوا يرون السحاق كرغبة طبيعيّة عند النساء.

لكن، ســوف أعود إلى التيفاشــي بعد أن نلتقي بمثلية عربية أخرى من القرن التاسع، وهذه المرأه كان اســمها بذل، وكانت بذل مطربة وجاريــة في عهد المأمون، وما نعرفه عن هذه

المملوكـــة المدنيـــة وارد في كتـــاب أبو فرج الأصفهاني المشـــهور: كتاب الأغانـــي. ويعلّمنا الأصفهانـــي أن بـــذل كانت مؤلفة لأكثر مـــن 1200 أغنية، وكانت تســـتطيع أن تغنّي أكثر من 30،000 لحن.

ويقول الأصفهاني، أيضًا، أنّ بذل كانت محبوبة من قبل العديد من المعجبين، وقد تقدّم لها أكثر من رجل واحد، ولكنها قضت حياتها بلا زواج.

في مجلس المأمون ذكر أحمد بن أبي طاهر أن محمد بن علي بن طاهر بن الحسين حدثه أن المأمون كان يومًا قاعدًا يشرب وبيده قدح إذ غنّت بذل:

ألا لا أرى شيئًا ألذّ من الوعد

فجعلته:

ألا لا أرى شيئًا ألذّ من السحق

فوضـــع المأمون القدح من يده والتفت إليهـــا وقال: بلى يا بذل، النيك ألذّ من الســـحق، فتشورت وخافت غضبه، فأخذ قدحه، ثم قال: أتمّي صوتك وزيدي فيه:

ومن غفلة الواشي إذا ما أتيتها ومن زورتي أبياتها خاليًا وحدي
ومن صيحة في الملتقى ثمّ سكتة وكلتاهما عندي ألذّ من الخلد

نسبة هذا الصوت:

ألا لا أرى شـــيئًا ألذّ من الوعـــــد ومن أملي فيه وإن كان لا يجدي
(نزهة الألباب ص. 242)

وفـــي يومٍ مـــن الأيام كانت بذل تثير فضولنـــا في هذا العمل. ما معنـــى جرأتها هذه التي

تثيرها على فتح موضوع السّحاق أمام المأمون؟ وما هي علاقتها بالسحاق؟ هل كان لديها علاقة مستمرّة مع إنسانة مجهولة. وهل كانت هي من السحاقيات الظاهرات المتذكّرات، أو هل هي من اللواتي يصعب علينا أن نعثر عليهنّ بسبب أنوثتهنّ وتجاهل الأدباء وجودهنّ؟

أنا أعتقد أنّ بذل كانت مثليّة، ليس لأنّني أريدها هكذا، وليس لأنني أفرض قيم ومفاهيم عصرنا هذا على القرون الغابرة، بل لأنّ الأصفهاني يشير إليها بأنها "ظريفة"، والظرف كانت كلمة متداولة في بعض المدن العربية القديمة بين السحاقيات العربيّات وهي تعني "السحاق".

ويضيف التيفاشي في القرن الثالث عشر: إن قيل إنّ فلانة "ظريفة" عُلِمَ بينهنّ أنها سحاقة. كما تقول المثليات المغربيات كلمة "gay". المثليّات العربيات المدنيات كانت لديهن كلمة "ظريفة" التي شاءت الصدفة أن تتشابه في معناها مع معنى كلمة "gay" الأصلي، وهو الذي يعني أن الإنسانة مبسوطة.

وسأنتقل الآن إلى فصل من كتاب التيفاشي "نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب". هناك فصل يتعلّق بالسحاقيات، وأظنّ أن هذا الفصل يُشكّل توثيقًا للمثلية عند النساء العربيات بشكل إيجابي. وبالإضافة إلى ذكره لإمكانية المثلية أن تكون شهوة طبيعية، فهو لا يذكر، أيضًا، كتابًا أو أحاديث قامعة أو استياء أخلاقيًّا من الموضوع. ويُعطينا التيفاشي نصًّا منقولاً من سحاقية اسمها وردة، ومن هي المرأة العربية المثلية الأخرى التي تكلّمت عن نفسها من خلال سطور قليلة. تقول وردة:

> "نحن معاشر السحاقات تجمع الواحد منّا مع الناعمة البيضاء، الغنجة، الغضّة، البضّة، التي كأنها قضيب الخيزران، بثغر كالأقحوان، وذوائب كالأرنباني، وخد كشقائق النعمان وتفّاح

لبنان، وثدي كالرمان، وبطن بأربعة أعكان، وكس كامن فيه النيران، بشفرين أغلظ من شفتي بقرة بني إسرائيل، وحدية كأنها سنام ناقة ثمود، ووطء كأنها آلية كبش إسماعيل، في لون العاج، ولين الديباج، محلوق مخلق، مضمّخ بالمسك والزعفران، كأنه كسرى أنو شروان وسط الإيوان، بالأصداغ المزرفنة، والنحور المزيّنة بالدرّ والياقوت والغلائل اليمنيّة والمعاجر المصريّة. فنخلو بهنّ بمعاتبات شجيّة ونغمة عدنيّة، وجفون ساحرة، سالبة لتامور القلب، ثم إذا تطابقنا بالصدور على الصدور، وانضمّت النحور على النحور، وتراكبت الشفران على الشفرين، واختلج كلّ منهما على الآخر، حتى إذا تعالت الأنفاس، وتشاغلت الحواس، وارتفعت الحرارة عن الراس، وبطل عند ذلك كلّ قياس، نظرت إلى الحركات الحسيّة، والضمائر الوهميّة، والصنائع الغريزيّة، والأخلاق العشقيّة، بين مص وقرص، ورهز ونهز، وشهيق وخفيق، وشخير وخرير، ونخير لو سمعه أهل ملطيّة لصاحوا: النقيرا مع رفع ووضع، وغمز ولمز، وضم وشم والتزام، وقبل وطيّب عمل، وانقلاب حرف مغير قلق."

كلّ ذلك بأدبٍ ملوكي وأنين زاكي، حتى إذا حان الفراغ، وخفّ المصاغ، شممت كنسيم الأنوار، في آذار، وروائح الراح في حانوت خمار، ونظرت إلى اهتزاز خصن البان من الأمطار. فلو نظر الفلاسفة إلى ما نحن فيه لحاروا، وأرباب اللهو والطرب لطاروا.

(نزهة الألباب، ص. 3-242)

الستّ وردة لا تريدني أن أعلّق على كلامها، تتكلّم بوضوح وإثارة جنسية ساطعة، ولكنها مثقّفة، لأنها تقتبس من القصص القرآنية: من ناقة ثمود إلى آلية كبش إسماعيل أو بقرة بني إسرائيل. وتتكلّم بالعلمانية، أيضًا، بذكر كسرى أنو شروان (الملك الفارسي) والقبائل اليمنية وأهل الملطية.

هذه ليست مجرّد قصيدة ساخنة سببها الإثارة فقط، بل هي شعر عربي عميق بمعناه وتقنيته الأدبية. مع أنه هائل بصراحته وتصويره الجنسيّ بقلم امرأة عربية مثليّة (سحاقية) من القرن الثالث عشر في بلاد المغرب أو مصر أو سوريا.

أودّ أن أثير انتباهكنّ لقصّتين أخريين في هذا الباب، في كتاب التيفاشي. كما أودّ أن أعرّفكنّ على قصائد كتبت لأجل مدح المثليّة عند النساء:

"شربت النبيذ لحبّ الغزل وملت إلى السحق خوف الحبل
فضاجعت في خلو حبتي وفقت الرجال بطيب العمل
إذا كان سحقي مقنعًاَ غنيت به ورفضت الرجل
(نزهة الألباب، ص. 244)

تقول الشاعرة إنه حين فاقت الرجل بطيب العمل الجنسي مع حبيبتها وجدت قناعة واكتفاء بهذه العلاقة، ولهذا السبب فهي ترفض الرجل. هناك بساطة في التعبير ولكن نشعر باقتراب من تجربة هذه الشاعرة التي بدأت علاقة مع امرأة واكتشفت ميولها.
وهناك قصيدة أخرى على هذا النمط، تقول:

قنعت بحبتي ورفضتُ أيراً عواقبه بذات القدر تذري
إذا ما قيل قد حبلت فسحقًا لأولاد الزنا يضيق صدري
فما عذري إلى الأبوين فيه؟ فقد قطع الزناء حبال ظهري
(نزهة الألباب، ص. 244)

أولاً، تقول الشاعرة إنّ من محاسن العلاقات المثلية الحصرية هو عدم الحبل، واجتناب جزية الزنا التي كانت تُعاقب بقسوة. وهذا الكلام من الممكن أن يعني أن الكاتبة كانت في إحدى المناطــق العربية التــي لم تكن تعاقب المثلية كبغداد في القرن التاســع تحت تقنين قاضي المسلمين يحيى بن أكثم.

والقصيدة الأخرى:

وكم قد سحقنا، أخت تسعين حجّة   أسّر وأخفى من دخول الفياشل
ومن حبل يرضى العدوّ ظهوره   وأعظم من هذا ملام العواذل
وليس علينا الحدّ في السحق كالزنا   وإن كان أشهى منه عند القوابل
(نزهة الألباب، ص. 244)

هــذه القصيــدة تردّد ما قيــل قبلها وبعدها من أنّ الشــاعرة ترى نفســها مقتنعة ومرتوية بعلاقتهــا المثليّــة التي تفضّلهــا على علاقة مع رجل ومــا يتبع هذه العلاقة من مشــاكل اجتماعية وتناسلية.

وأخيــرًا، فــي هذا المقطف أودّ أن أعرّفكنّ على قاضٍ مصــريّ متحفّظ في أوائل القرن الثالث عشــر، وقد وجــد نفســــه يومًا في قرافة في الصّعيد المصــري وخلال تجوالــه على بغله قـــال يحدّث:

"فبينما أنا أسير بين المجبانات سمعت في تربة
من التُرَب شخيراً ونخيراً وشهيقاً يسلب العقول
ويأخذ بمجامع القلوب، لم أسمع بقطّ مثله ولا

ظننت أحدًا يفعله. بحركات موزونة ونغمات مطبوعة وألفاظ مسـجوعة يّنسـى لها نغمات الأوتار وتستخفي لديها ربات المزمار.

فسـقت دابتي إلى حائط التربة ثـمّ تطاولت وأشرفت وإذا بامرأتين، السفلى جارية تركية تُخجل البدر كمالاً والغصـن اعتدالاً، بيضاء، غضّـة، ناهد. وعليهـا امرأة نصيفـة، بدينة، حسـنة، نظيفـة الـزيّ، شـكلة إلا أنهـا ليس كالسـفلى، وهـي تسـاحقها وتطارحها ذلك الكلام والسـفلى تجيبها جـواي مقصر كأنها متعلّمـة لهـا: (مكانك كمـا أنـت)، فبقيت مسـتلقية على ظهرها ثم كشفت عن بطنها وسـرتها وصدرها ثوبا أزرق كان عليها، فبان لهـا صدر كالمرمـر ونهدان كالماتـان وبطن كأنه عرمة ثلج فيه سـرّة كمدهن بلور إلى حرف راب ، أبيض، مشـرب بحمرة لم أشـاهد قـط عظمة ولا نقتة، ثـمّ قالت لي: (ويحك يا وحش يـا ثقيل، رأيت قط مثـل هذا؟) فقلت لهـا: (لا واللـه)، قالت لـي: (فدونـك غنيمة نادرة هيّأها الله لك، وانصرف بحال سـبيلك). (قال): فلّما شـاهدت ذلك وسمعته سلب منّي

العقــل والدين، ولــم أملك نفســي، فقلت لها: (ويحك معي هذا البغل)، قالت: (فأنا أمســكه). فنزلــت ويشــهد الله أني خالفت ســجيتي في ذلك، ثم دفعت لها عنان البغل والسوط ودخلت التربة فحللت عقد الرايات وألقيتها على ساقي ثم حللت الســراويل وألقيت طرف الطيلســان مــن وراء كتفي وأدخلت يدي فشــلت ذيولي وقربــت من الجارية وانحنيــت عليها، فعندما أقضيــت بــرأس ذكــري إلى شــفري فرجها وجدت نعومته وحرارته لم أشــعر إلا بحوافر البغل غاديًا والمرأة تصرخ وتقول: (أفلت البغل)، فقمت أنا والــه العقل وخرجت فإذا البغل غاد بــين الجبانات في اختلاط الظــلام، لا أعلم إن غاب عن بصري حين ذهب، فعدوت وراءه وأنا في تلك الحالة، منعظ الذكر، محلول السروال، ملقــى الرايــات عاري وجــوه أقدامــي، مختل الطيلســــان، أقــوم مــرّة وأقــــع أخرى."
(نزهة الألباب، ص. 240)

ما يثير إعجابي في هذه القصّة هو انتصار البطلتين المجهولتين وبهدلة القاضي وتأديبه، وما يثيــر انتباهي، أيضًا، هو وصف الكلام بين الجاريــة التركية والمرأة التي تضاجعها. القاضي يصف هذا الكلام ولكنّه لا يردّده، ويترك التخايل لمستمعي قصته الطريفة. ومن هذه القصّة

نتعلم شيئًا آخر مهمًّا، إذ نلاحظ أنّ نساء ذلك العصر الممنوعات من التجوّل والحرية الفردية كـنّ يجتمعـن مع صديقاتهنّ من النسـاء في الجبانـات التي "لا يُحرج عليهـنّ في المبيت فيهـا". وأعلم حينها أنّ المثليات العربيات القديمات لم يكُـنّ يختلفن عنّا كثيرًا، من حيث أن الاختبـاء، لا بل الاختفاء، قد فُرِضَ على المرأة العربية بشـكل عام، وكذلك كبت المرأة العربيـة المثليّة. وأقرباؤنا القدماء هؤلاء لـم يكُنَّ دائماً مختبئين أو مضطهدين أو خائفين أو فقراء أو بؤساء أو جواري حُسناء.

وأحبّ أن أختم هذه الفقرة بمقطعٍ أخير ورد لدى التيفاشي:

> "وقـد شـاهدت امرأة منهـنّ بالمغـرب، كان لهـا مـال كثير وعقـار واسـع، فأنفقت على عشيقتها المال الناضر. فلمّا فرغ وأكثر الناس عليهـا من العتـب والملامة، سـوّغت لها جميع العقار فحصلت على نحو خمسـة آلاف دينار."
> (نزهة الالباب، ص. 237)

لاحظن هنا أنّ المعاتبة ليست بسبب جنس العشيق المؤنّث، بل بسبب إفراطها على عشيقتها بالمـال الناضـر. ولاحظن، أيضًا، أن هذه المرأة كانت مشـاهدة – كانـت خارجة وظاهرة وكان لها استقرار ماديّ ناتج عن العقار الواسع الذي تبرّعت به لعشيقتها.

تذكـرن أنني قلتُ في البداية إن "أصوات" تنتـج أدبًا مثيرًا يحيي تراثًا عربيًّا قديمًا. حين قـرأت كتـاب "أصوات" بعنوان "حقّـي أن أعيش، أن أختار، أن أكون" سـررتُ بما وجدت

مــن تقنيات تعبيرية ومن إنســانية المؤلفات التي برزت من خــلال الصفحات، والترابط بين المتكلمات الكلاسيكيات وتجاربهنّ والكاتبات المعاصرات. وعلى هذا الترابط من الممكن أن نبني سياسة تحريرية متماسكة أكثر وسياسة تزيدنا ثقة وفخرًا بأنفسنا.

أشكركن جميعاً على حضوركنّ وانتباهكنّ ووقتكنّ.

كانت هـذه كلمات الدكتـورة سـمر حبيـب كما وردت فـي محاضرتهـا التـي ألقتها بمناسـبة احتفال أصـوات بإصدار كتابهـا الثاني "حقّـي أن أعيـش، أن اختار، أن أكـون."

هـذه الكلمـات لا تأتـي صدفة أو دونمـا قصد. إن من حقّنـا أن نحمل هويّتنا الجنسـيّة ونكـون فخورين بها، ليس كحقّ شـخصيّ وفرديّ بحسب، وإنما كحقّ سياسيّ بحت.

إنّ مثليّتنـا لا تقتصر على ميول جنسيّة فحسب، وإنّما هي الهويّـة التي يجب تسييسها.

كمـا رأينا وأيقنا من نضالات سـابقة على مـدار التاريخ لأناس "عاديين"، من نضال تحرير العبيد وإلغاء العبوديّة إلى انتفاضة شـعب ضد الاحتلال، فإنّ علينا نحن، أيضًا، أن نواجه الإجحاف والاضطهاد بكلّ ما نملك.

إنّ مسؤوليّة تحريرنا، نحن المثليين والمثليّات وغيرهم من الأقليّات، تقع أولاً وأخيرًا على عاتقنا نحن، إذ إن تثقيف أنفسنا يمنحنا الجرأة والشرعيّة لنيل حقنا في العيش، الاختيار والكيان المتساوي والفخور، فالحريّة تؤخذ ولا تُعطى.

نحن لا نتجاهل المصاعب والثمن الذي يمكن للإنسان دفعه مقابل عدم الاختفاء والظهور المثلي السياسي، إلا أنه يجب أن نتذكّر، أيضًا، أنّ هناك مردودًا إيجابيًا ومثريًا لخطوة الظهور وعدم القبول بالحياة الازدواجيّة كحلّ وحيد.

وكما تقول سمر حبيب: "مطالبتنا بحريتنا وحقوقنا لن تكون دائمًا مسالمة ونظيفة، فقد تكون هناك نقطة في الزمن سنضطرّ فيها أن نحارب، وأن نقف صامدين دفاعًا عن حقوقنا، وأن نكون مشاغبين ونتكلّم بأصوات مرتفعة عن أشياء ساخنة، وأن نكون مستعدّين لخسارةٍ أجزاء من حياتنا التي تنمو بخزانتنا."

المصـــــادر :

رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، تأليف أحمد بن محمد بن علي اليمني

نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب، تأليف أحمد التيفاشي

"*Female Homosexuality in the Middle East*"، By Samar Habib

إصدارات أصوات السابقة:

- أين التاريخ من المثليّة الجنسيّة
- المثليّة والأمراض الجنسيّة
- موكب الفخر العالمي
- المثليّة الجنسيّة في الدول العربيّة
- الهويّة الجنسيّة
- مؤتمر أصوات واليوم العالمي لمناهضة رهاب المثليّة
- المثليّة الجنسيّة والأفكار المسبقة
- ضوء على صحّة النساء المثليّات وعنايتهنّ الصحيّة
- رموز المثليّة الجنسيّة وتاريخها
- تلخيص فعّاليات أصوات لسنة 2007
- الخروج من الخزانة أمام الأهل
- المثليّة الجنسيّة في جيل المراهقة
- مصطلحات أساسية في الهوية الجنسية 1
- مصطلحات أساسية في الهوية الجنسية 2
- كتاب أصوات الأول: "الوطن والمنفى في تجربة المتحررات جنسيا: مجموعة مقالات نسويّة تبحث في موضوع المثليّة الجنسيّة"
- كتاب أصوات الثاني: "حقي أن أعيش، أن أختار، أن أكون: مجموعة نصوص أدبية لنساء عربيّات مثليّات"